الفصل الثامن

قال الشيخ :

ـ ما رأيك في سورة الكهف ؟

عرتني الخشية كعادتي كلما ألقى الشيخ علي سؤالاً . كان موقفي كموقف التلميذ الذي يخشى سؤال الأستاذ وأجبت متملصاً :

ـ قصة جميلة .

تقوس حاجباه وازداد بروز تجاعيد جبهته وقال :

ـ أهذا كل ما عندك ؟ خبرني ما رأيك في الفتية الذين لجؤوا إلى الكهف فراراً من الظلم فأنامهم الله ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً ثم أفاقوا . . وما قولك في عددهم المختلف فيه وكلبهم الباسط ذراعيه بالوصيد ؟

قلت مدلياً دلوي :

ـ الكهف يذكر بكهف أفلاطون الشهير .

ـ هذا جيد .

تشجعت وتابعت :

ـ أفلاطون يرى أن العالم المحسوس عالم غير حقيقي ولهذا فهو يصور لنا أناساً وضعوا في كهف وجعلت ظهورهم لنور قوي باهر يطرح ظلالاً وصوراً على

obeikandl.com

الجهة المقابلة لوجودهم ، وهم لا يستطيعون أن يدركوا هذا النور مباشرة وإنما يتأملون الأشباح المرتسمة على جدران الكهف .

ـ وما أراد أفلاطون بكهفه مثلاً ؟

ـ أراد أن يقول إن النفس محبوسة في كهف البدن وهي لهذا لا تستطيع أن ترى النور إلا بعد أن تتخلص من البدن ذاته ، وكنت ذكرت أن أفلاطون يعد وجود النفس في البدن سجناً ونفياً من عالم السماء .

ـ جيد ، هذه دعوة إلى الانصراف عن عالم المحسوسات إلى عالم الكليات وقد كنا بحثنا هذا من قبل ، وليس قصدنا من السؤال عما ورد في سورة الكهف أن نتحدث عن المحسوس والمعقول .

خاب ظني إذ لم أكن عند ظن الشيخ وقلت :

ـ هلا عبّرت أنت القصة يا سيدي ؟

قال :

ـ الكهف البدن أو الجسم ، وهو هنا الجسم الكلي ، إذ جعلنا الأجساد الجزئية جسماً كلياً لأنه مركبة من نور واحد على الحقيقة أما الفتية الذين أووا إلى الكهف فهم الحواس . جاء في القرآن ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ﴾ . إذن لقد اختلف في عددهم ، ولابن عربي تفسير في مطابقة عدد الحواس مع الثلاثة أو الأربعة أو الخمسة ، إذ يقسم العدد بين الحواس الظاهرة والباطنة . . أما الكلب فهو النفس الحيوانية الذي بسط ذراعيه ، والذراعان الشهوة والغضب ، والشهوة تقوم على حفظ الجسم ، والغضب مهمته جلب الملائم ودفع الضار كما يقول شيخ الإشراق . والفتية نيام ، والنائم وديعة عند الله الذي هو المحرك والفاعل ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ ، والتقليب حركة وأثبتناها لله ، واليمين الخاطران الإلهي والملكي ، والشمال النفسي والشيطاني ، والتقليب

للتعليم . فلقد ورد في وصف الفتية أنهم صاروا طوال الأظافر والشعور ، والرمزان إشارة إلى القوة ، والقوة هنا للعقل الذي كان هيولانيا ثم قوي بممارسة إمكاناته عن طريق الاتصال بعالم المحسوسات فانتقل من العقل بالقوة إلى العقل بالفعل إلى العقل المستفاد . وآية الإنسان التي فضل بها على الحيوان عقله ، وعقله التجريد والاختيار . فالحيوان له حواس الإنسان إلا أنه عاجز عن التجريد . فالعدد واحد ، وبدء تمييزه عملية خاصة بابن آدم وحده فهو الذي أوتي القوة على أن ينتقل من المحسوس إلى المعقول أي من الكثرة إلى الوحدة ، أي من الأقلام المشاهدة إلى انطباع صورة قلم واحد كلي في الذهن . فلولا المحسوس ما تفتق العقل البشري عن معجزة التجريد . ولولا الأقلام المشاهدة كيف كان بوسع العقل أن يستخلص فكرة القلم الواحد المعقول . فهذا السلم النوراني معد ليصعده ابن آدم درجة درجة إلى سماء المعقولات . ويختلف الناس ويتمايزون في مدى هذا التجريد ، فمنهم من يبقى في الدرجات الأولى في السلم ، فتظل قلوبهم متعلقة بعالم المحسوسات وبالتالي بالشهوات وهؤلاء هم أسرى النفس الأمارة ، ومنهم من يبدأ صعود سلم التجريد بوحي من الله عز وجل فيكون له قلب ، والقلب من التقلب ، ويكون متردداً بين وحي روحه ووسوسة نفسه فتراه يرقى سلم التجريد درجة درجة بالعذاب والرحمة . . ومنهم من يفلح في الوصول إلى درجات التجريد العليا ، وأصحاب هذا المقام الفلاسفة الذين استطاعوا بلوغ سماء التجريد وتداولواعملته الخالصة فصارت لغتهم متخصصة في الحديث عن المعقولات الخالصة محاولة منهم لكشف ستر الغيب واطلاع ما فيه من أسرار ، وأشهر هؤلاء أفلاطون وأرسطو والفلاسفة المحدثون أمثال كانط وديكارت وهيغل وأضرابهم . واختلاف الفلاسفة محتم ما دام لم يكشف لهؤلاء الحجاب ولم يخرق لهم الستر ولم يؤيدوا بنور من الله عز وجل وهو النور الذي وصفه سبحانه بقوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرناما كنت تدري ما الكتاب ﴾ . ويصف ابن عربي لقاءه شارح أرسطو الكبير ابن رشد فيقول :

دخلت يوماً بقرطبة على قاضيها أبي الوليد بن رشد ، وكان يرغب في

لقائي لما سمع بي ، وبلغه مـافتح الله عـلي في خلوتي ، وكان يـظهر التعجب ممـا سمع . . فبعثني والدي إليه في حاجة قصداً منـه حتى يجتمع بي ، فـإنه كـان من أصدقائه ، وأنا صبي ما بقل وجهي ولا طر شاربي . . فلما دخلت عليـه قام من مكانه إلي محبة وإعظاماً فعانقني وقال : نعم ؟ فقلت له : نعم . فـزاد فرحـه بي لفهمي عنه ثم استشعرت بمـا أفرحـه من ذلك فقلت لـه : لا . فانقبض وتغـير لونه وشـك فيما عنـده ، وقال : كيف وجـدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهي هل هو ما أعطاه النظر ؟ قلت له : نعم ولا وبـين نعم ولا تطير الأرواح فـاصفر لونه وقعد وحوقل وعرف ما أشرت به إليه .

وعلق الأستاذ سميح الزين على ما جرى قائلاً :

ربما أراد ابن رشد أن يسأل ابن عربي فيما إذا كانت الأدلـة العقلية تـوصل إلى الحقيقة فلما قال له نعم فرح ابن رشد ، ولكنه حين قال له لا انقبض . وقد أضـاف ابن عـربي أنـه بـين نعم ولا تـطير الأرواح بمعنى أن الـطريق النـظري والطريق الكشفي كل يوصل إلى الحقيقـة ، ولكن شتان بـين ما يعـطيه البـرهان العقلي وما يعطيه الكشف . فالبرهان العقلي يعطي الإقناع ، وأما الكشف فكأنما صـاحبه يـرى بالعـين . . ثم إن بين من ينكـر الكشف وبين المؤمنـين بالكشف خلافاً أهدرت فيه الأرواح .

وضيق الشيخ عينيه وقد ازدادت نظرتهما نفاذاً وقوة واستطرد قائلاً :

ـ فإذا كان هذا حال كبير تلامذة أرسطو وأحد كبار الفلاسفة المسلمـين فما يكون حال البقية الباقية ؟ لقد بحثنا من قبل مـوقف افلاطـون الذي قـال بخلق الأرواح قبل الأجسام في السماء والذي عـد هبوط الـروح إلى البدن نفيـاً وألماً ثم قال بتناسخ الأرواح إلى أن يتم رواحها إلى عالمها الأصيل ، ووافقه في هـذا ابن سينا الفيلسوف الإسـلامي الكبير الـذي حاول جـاهداً أن ينفـذ إلى أسرار علوم الإشراق ومواكبة أعلامهـا فإذا بفلسفتـه تصيب وتخطىء كشـأن كل الفـلاسفة . وما يدهشني أن صاحب نظرية المُثل الشهيرة في الفلسفة يعد هبوطنـا إلى الأرض نفياً وألماً، والسؤال هو: فلماذا نفـانا الله إذن؟ ومـا هذه الخـطيئة الأصليـة التي

ارتكبناها في وجود غير هذا الوجود حتى حكم علينا بالنفي ، وهذا التساؤل هو عين ما اثبته أبن سينا في قصيدته العينية المشهورة ، وكان الأولى بنا على إيمان كهذا أن يبقينا الله في عالم السماء ولا يجعلنا نهبط إلى الأرض ونشقى ، وحاشا لله أن يكون قد خلق الإنسان ونفاه ليعذبه وخيم هذا العذاب الذي لا يتمخض إلا عن الألم ، ألم الجسم وألم الروح . . ثم إن فيلسوف المثل لم يميز بين المثل العقلية والخواطر . لقد استهوته الكليات المحسوسة ونفذ منها إلى الصفات كتعريف الحق والخير والجمال . . أما عن النفس فقال إن فيها خيراً وشراًوحذر من الشر ودعا إلى الإيمان بالخير ، واستمر الرجل في العزف على هذا الوتر حتى قال إنه اطلع عالم الغيب فرأى إلى ما يصير إليه فريق الأخيار وهي الجنة وإلى ما يصير إليه فريق الأشرار وهي النار، وهذا كله جيد، ونحن لنقرأ مثله في الكتب السماوية وأحاديث الأنبياء . . ولكن يبقى السؤال : أين التوحيد ؟ وأين علوم التوحيد ؟ وما هذا الخير والشر الموجودان في النفس البشرية ؟ لقد ظل فيلسوف المثالية واقفاً على خدود عالم الغيب لا يستطيع أن يتجاوزها ويطلع على الأسرار . أما تلميذه أرسطو، المعلم الأول ، وثاني فلاسفة اليونان العظام فلقد أنزل المثل إلى الأرض ودمجها بالمادة وقال إن المثال لا يوجد دون هيولى . ولا هيولى دون مثال وهذا جيد . . إلا أن الرجل أراد أن يفسر سر الحركة في عالم العناصر فلم يجد وسيلة بتفسيرها إلا بالشوق، فما طبيعة هذا الشوق المحرك ، ومتى كان الشوق محركاً وحركة ؟ أما إله أرسطو فهو من العجب في الغاية . اثبت أرسطو وجود الله ثم نتف ريشه . أراد أن ينزهه كما يليق التنزيه الإلهي فكانت النتيجة أن التنزيه دون التشبيه أدى إلى التعطيل الكلي . فالله فعل محصن وفعله التعقل وهو لا يتعقل إلا ذاته لأنه إن تعقل غير ذاته أنقص هذا من كماله . ياللعجب ، إله لا يتعقل إلا ذاته فهو العقل والعاقل والمعقول ، تنزيه جيد ولكنه في حق الكمال الإلهي جريمة . إله لا يدري عن عالم الجزئيات شيئاً لأنه منصرف إلى التفكير في كماله عن التفكير في نقص عالم الجزئيات . . ثم ما هذا الكمال الإلهي الذي لا يعلم عن وجود ما غير الإلهي شيئاً ؟

قلت للشيخ :

ـ العلم بالجزئيات يقتضي تطور العلم ، إذ وجود الجزئيات نفسه متغير ومتطور ، وعلم الله ثابت فإذا دنا من العلم المتطور انتفت عنه صفة الثبات وهذا لم يرضِ أرسطو .

استمعني بدهشة ثم قال :

ـ العلم غير المعلومات يا بني ، العلم صفة والمعلومات تحقق هذه الصفة ولا علم دون تطور .

تساءلت بدهشة :

ـ حتى العلم الإلهي يا سيدي ؟

ـ حتى العلم الإلهي . في كتاب الله نموذجان عن العلم والمعلومات خذ مثلاً قوله تعالى : ﴿ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون ، في بضع سنين ، للّه الأمر من قبل ومن بعد ﴾ فيها قضاء كوني قضى بأن تُغلب الروم في المرة الأولى وأن تَغلب في الثانية ، وهذا العلم ضروري للحفاظ على نظام الكون وإلا لظهر الفساد في البر والبحر . . أما النموذج الثاني فقوله تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ﴾ ، ولقد نزلت الآية بعد أن حرم النكاح في شهر رمضان فأحله ، الله ولكن في الليل بعد أن علم أن الناس لا يصبرون عن النكاح ، فالعلم الإلهي لا يتعارض مع علم الجزئيات المتطور . . ثم قوله في المائة الصابرة التي تغلب ألفاً من الكفار فعدله بقوله ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين ﴾ ، فهناك إذن علم على نحو كلي وهناك علم بالجزئيات متطور وهو لاينافي صفة العلم .

قلت :

ـ هذا تعريف خطير للعلم الإلهي يا سيدي . كيف يجهل الله شيئاً من أفعال العباد ؟

قال :

ـ هـذا وضع طبيعي وهـو نتيجـة لإخـراج مـا في مكنـونـات الأسـماء من مقتضيات . . وإسم يثبت واسم ينفي ، إسم يرفع وإسم يخفض والنتيجة خروج علم جديد .

ـ ولكنـك قلت يا سيـدي إن الله ما خلق الأسـماء وتضادهـا إلا لتعـريف الأسماء نفسها كالشجاع لا يقومه إلا الجبان .

ـ هذا صحيح ، ولكن هناك تطور يحدثه التضاد أيضاً .

قلت :

ـ هناك فيلسوفان محدثان يجسدان النظريتين ياسيدي . . هيغل القائـل إن القضاء يخرج الحد فقط أي مكنون الصفة ، وفشته القائل إن التضـاد يؤدي إلى نتيجة . . إلى تركيب .

ـ كلاهما أصاب .

ـ ولكنني أرى في الاعتراف بتطور العلم الإلهي نقصاً في جناب الحق .

ـ سبحـان الله ، أتنكر مـا جاء في كتـاب الله ؟ ثم لماذا نعـد هذا التـطور نقصاً في جناب الحق ؟ خذ مثلاً العلماء والمخترعين ، صحيح أنهم حين يبدؤ ون تكون لديهم فكرة كلية عما يفعلونه ولكن الفعل ذاته يحدث تطورات ومفاجأت .

قلت بدهشة :

ـ مفاجأت ؟

ـ أجل مفاجأت .

ـ وهـل يمكن أن نقيس هذا عـلى جناب الحق يـا سيـدي . . الحق نفسـه يتعرض لمفاجأت ؟

ضحك حتى بدت نواجذه وقال :

ـ هـذه نتيجة تـركيب الحدود يـا بني وهي معروفـة في الفلسفة فـإذا كانت أ تساوي ب وب تساوي جـ فهذا يعني أن أ تساوي جـ وهذه نتيجة جديدة .

ـ ولكن هــذا منـطق مــعـروف في الفلسفـة . . ثم إنــك ، وأرجـو ألا تؤاخـذني ، سبق وجعلت كل شيء حتى نشـاط الذرة منـوطاً بـالله عز وجـل ، وفسرت ما معنى لا حركة ولا سكون إلا بأمـره إذ قلت هو الحـركة والسكـون ، فمن أين تأتي المفاجأت إذن ؟

ـ هل قرأت عن السرعة المتزايدة ؟

ـ أجل .

ـ حـين تدفـع شيئاً قـابلاً للتحـرك نبدأ ببـذل الجهد ونـظل ندفـع إلى أن يتحرك المتحرك ، ومـا أن يتحرك حتى تقـل حاجـة المتحرك إلى الـدفع ويبـدأ في اكتساب قوة ، قوة ذاتية إن صح القول ، أو قـوة لم تكن موجـودة ثم وجدت أو كـانت ميتة فحييت . .ونـظل ندفـع المتحرك إلى أن نصـل إلى حد أنـه المتحـرك المدفوع قد اكتسب سرعة تجعله ينطلق انطلاقاً ذاتياً فنرفـع عنه عنـدئذ أيـدينا ، وليس هـذا فقط فإن هـذا المتحرك لـو كان كتلة مثـلاً لاكتسب قوة . خـذ مثـلاً شاحنة دفعها محركهـا فإذا وصلت سـرعتها إلى درجـة معينة استـطعنا أن نـوقف المحـرك كما أن الشـاحنة نفسهـا تصبح قـادرة على جـر مقطورة بقـوة اندفـاعهـا الذاتي . . فأنت ترى كيف تطورت سيرورة القضاء حتى اكتسبت هي وجـوداً لم يكن موجوداً ، ونحن هنا أمام خلق جديد . فالملائكـة وهم المعقولات لم يعرفوا مــا تعـريف المعقــولات لمـا سـألهم الله عن أسمـائهم ، في حــين أنبـأهم آدم بــأسمـائهم ، فمن أين علم آدم علم المعقــولات وهـو مــازال في عـالم الغيب والــطي ؟ إن المعقـولات ذاتهــا هي التي مـدت آدم بهــذا العلم لمـا أخــرجت مقتضياتها .

قلت متعجباً :

ـ عفواً ، ههنا تنـاقض على مـا أرى . المعقولات قبـل أن يخلق آدم كانت

تجهل ذاتها فكيف صارت تمد آدم بالعلم لما أخرجت مقتضياتها ؟

ـ كانت بالقوة فصارت بالفعل . كانت ذات وجود ماهوي فصارت موجودة عيانياً . خذ مثلاً الجنين وهو في بطن أمه فإن فيه العقل في جميع مراحله وهو مع هذا يجهل أن عنده أي شيء ، حتى إذا غادر الرحم إلى النور أخرج ما أودع فيه من خزائن رحمة ربك من القوى والعلوم .

ـ ولكننا بهذا نستند إلى الله في حين تسند أنت الواحد إلى الكثرة .

أحدّ النظر إلي مضيقاً عينيه ، وجعلت عيناه تشعان بذلك الوميض الذي ينفذ كالشعاع ثم قال :

ـ هل تذكر نظرية الواحد والأعداد !

ـ أجل .

ـ هل تذكر كيف أن الفيثاغوثيين أول من جعلوا الواحد قنطرة بين المحسوس والمعقول ؟

ـ أذكر .

ـ من هذا المنطلق نفسه خرج الواحد من الكثرة . . لا أقصد الانتقال من الجزئيات إلى الكليات بل أعني أنه لولا الكثرة ما كان الواحد .

مددت عنقي كالأوز متسائلاً فاغر الفيه :

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول لك لولا الكثرة ما كان الواحد .

ـ ما هذا الكلام يا سيدي ؟

ـ هو كما أقول ، الواحد من غير كثرة لا وجود له .

صحت خارجاً عن طوري :

ـ هذا غير معقول يا سيدي . أنت تجعل الله خارجاً من البشر . جمع

رؤ وس أصابعه إلى بعضها بعضاً وجعل يهز يده ببطء قائلاً بصوت خفيض :

- على رسلك ، على رسلك ولا تعجل . لقد سأل صحابي رسول الله أين كان الله قبل أن يخلق الخلق فأجاب النبي كان في عماء ما فوقه هواء ولا تحته هواء . القضية يا بني ظاهرة باطنة ظاهرة إذا نظرت إليها من جانب الواحد رأيت كثرة ، وهذا التضاد الجمعي إن صح القول نسبي إذ أن هناك علوقاً بين الكثرة والواحد والواحد والكثرة . فالواحد حين ظهر في كثرة احتاج إلى الكثرة ليظهر بها وإلا لما ظهر ، ولو أنه لم يظهر لم يسم باطناً ، فهو الباطن بالقياس إلى الظاهر ، وهو النور بالقياس إلى الظلمة ، وهو الغني قياساً بالفقر الإمكاني . هذا هو تعريف الواحد بعد النظر إلى الكثرة . . ولكن حين تقلب الآية نجد أن رابطة العلوق أقوى من هذا الخروج بالذات . الواحد من غير كثرة لا وجود له بمعنى أن الإشعاع النوراني توقف ، وإذا توقف لم يكن ثم نور ، إذ النور إشعاعه منه وفيه . فالكثرة ها هنا هي الواحد لتثبيته وهي الأساس لو نظر إليه من خارج . . هي هو عند النظر ، ولولا النظر ما عرف المعقول ولا الإنتقال منه إلى الواحد . وهكذا الأمر عند النظر إلى العدد ، فلولا الأعداد ما استطعنا إخراج الواحد ، ولظل الواحد غير موجود ، فالوجود الماهوي يشترط وجوده بخروج الموجود منه وإلا لكان هو غير موجود . . وهذا حال المرآة فما أن تخرج من المعمل حتى تبدأ تعكس ما أمامها ، وما أمامها ضرورة لأن تعمل وإلا لبقيت معطلة ولما كانت مرآة أصلاً ، مفهوم ؟

يا إلهي كيف أهضم ما أسمع ؟ كيف أقبل ما أسمع ؟ وما هذا الذي يقوله الشيخ ؟ الله يخرج من الناس ، كيف ؟ ! . .

ظللت منشدهاً شاخص الطرف إليه أراه ولا أراه ، بينما جعل هو يداعب سبحته وقد شع وجهه بذلك السنا النوراني الأخاذ . يا إلهي من هذا الإنسان ؟ من أين جاء وكيف يتحدث بهذه الثقة ؟ وتذكرت أبن عربي فقلت :

- أنت تريد أن تقول إن الله بحاجة إلى أن يرى من خلال ظواهره مثل حاجة الظواهر إلى أن تخرج إلى الوجود من خلال الله ، هكذا فسر الدكتور أبو العلا

عفيفي قول إبن عربي فيعبدني وأعبده .

طفا على وجهه فجأة ذلك الطابع من العزم الذي يأخذه فجأة وقال :

ـ هذا تفسير الدكتور عفيفي . وإبن عربي قال إن الظاهر والباطن وجهان لحقيقة واحدة ولا وجود إلا له .

ـ ولكن ابن عربي أيد وجود اشباح عالم الإمكان كما قلت .

ـ صحيح ، ووجود عالم الإمكان يخرج الواحد .

صحت وأنا من الإنفعال في الغاية :

ـ كيف ؟ أنا لست أفهم . . لست قادراً على أن أفهم .

هز رأسه وقال :

ـ في عالم لا نرى فيه إلا الأشباح تصبح الأشباح ذات وجود أكثر من الوجود الحقيقي .

قال هذا ثم مضى إلى النافذة فنظر عبرها ثم التفت وأومأ إلي فاقتربت منه وأنا خائف ، خائف . لقد أشار إلى البناء المقابل وسألني :

ـ أترى البناء ؟

ـ طبعاً .

ـ هل رأيت كيف بني البناء ؟

ـ لا ، ولكنني رأيت مثله يبنى .

ـ دعنا من مثله فليس كمثله شيء . والآن قل لي هل يدلك وجود هذا البناء على وجود أساس له ؟

ـ بالطبع .

ـ وهل رأيت الأساس ؟

ـ لا .

obeikandl.com

ـ إذن لقد صار للبناء وجود أكثر من وجود الأساس .

حدقت إليه شاعراً بأنني سأغلب على عقلي وأشرت إلى البناء بيد مرتجفة قائلاً :

ـ البناء صار له وجود أكثر من وجود الأساس ؟

ـ أجل ، فلولاه ما كان الأساس ، وبالتالي لقد صار الأساس تابعاً للبناء .

هززت رأسي شمالاً ويمنة على الرغم مني وقلت :

ـ سيدي أنت تحيرني . هل أفهم عنك أن البناء صار أساساً لأساسه ؟

ـ هذا ما أعنيه بالضبط .

ـ حسناً ياسيدي . هل البناء قام على الأساس أم الأساس قام على البناء ؟

ـ طبعاً البناء قام على الأساس .

ـ فكيف يصير التابع متبوعاً ؟

ـ لأنك لم تر الأساس ، ولولا البناء الظاهر للعيان ما عرفت أن للبناء أساساً . نستطيع القول ، بكل بساطة ، إن وجود البناء صار أساساً لأساسه .

عدت ألح وانفعالي يتعاظم :

ـ أرجوك يا سيدي ، أنت تقلب المفاهيم ، أجل أنت تقلبها . أريد أن أسألك هل من الممكن أن يقوم البناء بلا أساس ؟

ـ لا .

ـ وهل يمكن أن يقوم أساس بلا بناء .

ـ لمعت عيناه بشدة ، وظهر في نظرته أنه أدرك ما جال في خاطري فسألني بدوره :

ـ وهل رأيت أساساً من غير بناء ؟

ـ في دور الإنشاء ، أجل .

ـ دعنا من التكوين ، فالتكوين لم يشهده أحد . هذا البناء ظاهراً وباطناً هل بني أساسه لكي لا يقوم هو عليه ؟

ـ ولكن من الممكن أن نتصور هذا . من الممكن أن ينشىء البناء الأساس ثم يتوقف .

قلب راحتيه وقال :

ـ سبحان الله . أنت تنتقل من الوجود إلى التجريد ، وأكثر ما حذر منه صاحبك هيغل هو التجريد . أنت تتصور وتفترض علماً أنه ليس أمامنا إلا هذا الوجود الواحد ، وهو وجود ظاهر وباطن ولا انفصام بين ظاهره وباطنه . على مستوى التجريد هل من الممكن أن يبني البنّاء أساساً دون بناء البناء فوقه ؟

ـ ممكن .

تبسم ضاحكاً وقال :

ـ من يفعل هذا ؟ ما أظن إلا المجنون هو من يفعل هذا ولا رأي في الوجود للمجانين .

ظللت أتأمل البناء محاولاً أن استوعب كلام الشيخ . كان هو قد تركني وعاد إلى مكانه فجلس وقرّب رؤوس اصابعه إلى بعضها بعضاً حتى كوّن منها رسماً دائرياً وسألني :

ـ هل تذكر حديثنا عن الجسم الكروي ؟

ـ أجل .

ـ وهل تذكر المثال الكبير الذي ملأ مساحة دائرة انطلقت في شتى الإتجاهات ؟

ـ نعم أذكر .

ـ حسناً ، بما أن الدائرة تدور حول نفسها ، أي حول مركزها ، فالمركز لا وجود له إذن من دون الدائرة . وقس على هذا أشكال المربع والمستطيل فنحن ما توصلنا إلى فكرة المربع إلا بعد رؤيته وعليه فالفكرة هنا نابعة من الرؤية ، ولو لم نر لم نجرد .

قلت مصراً على عنادي :

ـ هذا من عمل الذهن .

ـ بل هو وجود . ولنعد إلى مثال الشمس والأشعة . فالإشعاع ضرورة للشمس ولا شمس بلا إشعاع وبالتالي يصير الإشعاع أصلاً لوجود الشمس بمعنى أن ارتداد المقاومة أوجد السبب .

قلت مستمسكاً بما لدي من منطق بحزم :

ـ ما نراه يا سيدي ظواهر فقيرة في ذاتها واجبة بالظاهر ، والظاهر ضروري أساسي غني ، هذا قولك أنت ، فكيف تمت عملية التبادل ؟ من المعلوم أن لا معلول بلا علة فكيف صار المعلول سبب وجود العلة ؟

ـ بعد وجود المعلول انفصل ظاهرياً عن العلة وباشر إمكاناته فاكتسب قوة ذاتية أثرت بالتالي في العلة ونمتها .

قلت بأعلى صوتي :

ـ نماها ؟ المعلومات نمت العلم الإلهي ؟

ـ طبعاً . .

ـ كيف . . هل هذا ممكن ؟

ـ يا بني ، القضية ذات علاقة بالكليات ، والكليات من غير تجزؤ لا فعل لها . إنها مثل بذرة لم توضع في الأرض لتصير سنبلة فيها ما فيها من الحب . والإنسان تعينٌ الكلي ، هو واحد من حيث تبعيته للعقل ، وهو كثير من حيث تبعيته لعالم الكثرة . ومواجهة الانسان للكثرة تفرد ، ولأن الكثرة أصلها تضادات وصراعات فإن الإنسان متفرد يواجه صعوبة التعايش مع هذه

التضـادات ليتغلب عليها . أنت تـرى في كل مـوقف معقـد يقتضي حـلاً يلجـأ الإنسان إلى حاسة الخيال ليجد هذا الحل ، وهذا الخيال هو ما أودعه الله العبـد ليستفيد منه علماً .

عدت أسأل وأنا لا أصدق :

ـ تعني أن يستفيد الله علماً من العبد ؟

ـ طبعاً .

قلت وقد طفح كيلي :

ـ يا شيخ أنت تجعل الخالق بحاجة إلى مخلوق .

ـ مثلما المخلوق بحاجة إلى خالق .

ـ وتجعل حاجة الله إلى المخلوق عن طريق الخيال ؟

ـ طبعـاً ، وإلا فلِم أودعنا الله هـذه الهبة ؟ الخيـال هـو الهبـة الإلهيـة التي أودعها الله آدم ليتميز بها عن الحيوان .

ـ إلى هذا الحد تقوّم هذه الحاسة ؟

ـ يا بني الخيال هو الجسر الوحيد بين الذات والموضوع ، بين الروح وعـالم الحس . هو الشعاع الإلهي الجامع للنور اللطيف والنور الكثيف .

ـ وكيف يكون الله بحاجة إلى الإنسان لاستعمال حاسة الخيال ؟

ـ لأن الإنسان هو المخلوق الجـامع بـين الوحـدة والكثرة هـو انطلاقـه من الوحدة إلى الكثرة ، والخيال هو العودة من الكثرة إلى الوحدة .

ـ الخيال هو العودة من الكثرة إلى الوحدة ؟

ـ طبعاً .

ـ كيف ؟

obeikandl.com

ـ لأنه يحول المحسوس إلى معقول . والمعقول أصله عقل ، أي نور ، أي واحد .

ـ وكيف يحول الخيال المحسوس إلى معقول ؟

ـ بتحويل المحسوس إلى فكرة . . إلى صورة .

ـ وكيف يستفيد الله علماً من تحول المحسوس إلى فكرة . . إلى صورة ؟

ـ يا بني ، المنطلق كان من الصورة إلى عالم الحس ، وعالم الحس كله أصله صورة أو صور . لنقل أن عالم الحس قشرة تغلف لُباً هو الصورة .

ـ وبعد ؟

ـ يأتي دور الإنسان الهابط من الصورة ليتغلف بالحس . الصورة عقل الإنسان والحس جسمه . مهمة الإنسان بالضبط جمع شتات عالم الحس المتكثر واستخراج الصور منه بالخيال ، ومتى غني خياله حصلت له صور كثيرة يُوَّحد بينها فيصل إلى كشف وجود الله صاحب الصور .

ـ وما الذي استفاده الله من هذه العملية .

ـ في الحقيقة ههنا يكون دور الإنسان الذي هو وحدة ـ كثرة الخيال الفردي هنا يجابه كثرة حسية ، وهذه الكثرة فيها صراع كما قلنا ناجم عن صراع الأسماء المتضادة . وبالإضافة فإن الخيال فيه قوة مبدعة يستطيع بها أن يبدع ثالثاً من واحد وواحد . أو لست ترى أن العلماء يقضون عمرهم في البحث والتنقيب وصولاً إلى حلول لمسائل معلقة وكشفاً لمخترعات جديدة كانت قبل معدومة . ألست ترى أن العلم تقدم بفضل الإنسان على مر الزمان ؟

ـ ولكن الخيال هبة الهية كما قلت ، فلم لا يستعمل الله هذه الحاسة وحده دون اللجوء إلى الإنسان ليبدع ويخلق . . أو ليستفيد علماً كما قلت .

ـ هذا غير ممكن يا بني .

ـ غير ممكن بالنسبة لله ؟

ـ طبعاً . .

ياإلهي ماذا يقول الشيخ ؟ وهل يعقل ما يقول ؟ واستطرد هو :

ـ الله كـلي يا بني ، ولأنـه كلي فهـو لا يفكـر في التكـثر بـأسلوب التكـثر نفسه .

هنا أعلنت وكأنني اضبط الشيخ متلبساً باقترافه جريمة :

ـ هذا رأي أرسطو وأفلوطين اللذين ينكران أن يعلم الله الجزئيات وأنه لا يعلم إلا الكليات .

رماني بنظرة كـما لو كـانت عيناه قـوساً رمتني بنبلة ، نبلة مـريشة نفـاذة ، وقال :

ـ حسناً ، حين يضيق مجال العبارة فليس لنـا إلا الإشارة ، والإشـارة هنا مثال ، والمثال لعبة الشطرنج التي ما تزال تحتل مكـانها العالمي الـرفيع وتـزداد في كل يوم غنى وتطوراً . هل تعرف هذه اللعبة ؟

ـ أجل .

ـ هل سمعت عن مخترعها ؟

ـ قيل إنه عالم هندي اخترعها وأتى بهـا الملك فعرفـه قواعـدها ، فـأعجب الملك بهـا كثيراً ، وطلب إلى المختـرع أن يـطلب فيهـا جـزاء مـا يشـاء ، فقـال المخترع مطلبي أن يوضع في المربع الأول حبتان من القمح ، ثم يوضع في المربع الثاني حاصل ضرب العدد بنفسه أي أن تصبح الحبتان أربع حبات ، ثم يـوضع في المربع الثالث حاصل ضرب العدد أربعة بنفسه ، ثم يوضع في المربـع الرابـع حـاصل ضـرب العدد الأخـير بنفسه وهكـذا . . ولقد عجب الملك لهـذا الجزاء (الصغـير) الذي سـأله المختـرع لكنه تبـين له بعـد أن حسب الحاسبـون كمية القمح المطلوبة أن نتاج البلاد كلها لا يكفي لسد حاجـة المخترع ولمـدة أعوام ، وكان هذا بـالضبط ما أراده المختـرع الذي أراد أن يقـول أنه لا يـوجد جـزاء في الدنيا كاف لإيفاء لعبته الجديدة حقها من الجزاء .

جعل يستمعني هازاً رأسه مبتسماً إلى أن قال :

ـ مخترع الشطرنج عبقري الدهر ، أليس كذلك ؟

ـ طبعاً .

ـ حسناً ، لقد قلنا إن اللعبة ما تزال تنمو وتتطور حتى الآن . والروس هم أبطال هذه اللعبة اليوم يتوارثون بطولتها كابراً عن كابر . والسؤال هو هل التطور الذي بلغته هذه اللعبة على أيدي أبطالها على مر الزمان قد كان في علم المخترع حين اخترع لعبته ؟

تفكرت وأجبت :

ـ ماأظن .

ـ لماذا ؟

ـ لأن للشطرنج قواعد كلية عامة وضعها المخترع .

ـ ثم . . .

أدركت مايرمي إليه فتبسمت بدوري واستطردت :

ـ هناك خطة لعب في الشطرنج اسمها خطة نابليون . واسم الخطة وحده يدل على أن الخطة وجدت بعد وجود اللعبة بزمن .

ـ أي أن المخترع لم يكن على علم بخطة نابليون .

ـ لا ، طبعاً .

ـ وما يزالون حتى اليوم يخترعون لهذه اللعبة خططاً .

ـ أجل .

ـ حسناً ، مثال الشطرنج هو ما نحتاجه للدلالة على ما نريده بالضبط . المخترع وضع القواعد الكلية ، وهذا يشبه وضع الله للكليات الكونية ، أما التنفيذ فإن الخيال الفردي هو الذي يلعب دوره الأول فيه . صحيح أن الخيال هبة من الله ، ولكن هذا الخيال بحاجة إلى ميدان ليمارس فيه إماكاناته .

obeikandl.com

أديسون حين اخترع المصباح الكهربائي وضع كلية من كليات المخترعات الكهربائية ، في حين نجد أنه قد استنبط الآن من هذا المصباح ما لا يحصى من المخترعات الفرعية . إن حاسة الخيال وحدها هي التي تفتق الكل عن الجزء وتُفتق الجزء عن الجزيء وتستنبط من الأصل فرعاً ومن الفرع فروعاً . حاسة الخيال هي التي تواجد عالم العناصر فتؤلف وتركب وتحلل وتفكر وتتمثل ، والله مع هذه الحاسة حاضر يغذيها ويلهمها ويسددها . حاسة الخيال أشبه بفرس الفارس فهو من دونها ما كان فارساً ، وما كان بوسعه أن يقوم بدور الفارس ، وما سمي الفارس فارساً إلا بوجود الفرس . فهل عرفت الآن مدى حاجة الله إلينا بقدر حاجتنا نحن إليه ؟

قلت :

ـ لقد رأيت على أن ترد كل كثرة إلى الواحد فكيف تجعل الواحد هنا مرتبطاً بالكثرة وبحاجة إلى الكثرة ؟

ـ كيف ؟ لأنني سبق أن قلت لك لا أعتنق فكرة إلا بعد أن أراها كشفاً بالمنام . لقد رأيتني ذات ليلة وفي المنام مع شخص أسمه فؤاد ، وأمامنا فتاة نورية من النور ، فقيرة، فقال فؤاد أن أساعدها بثلاثين في المائة ، وقلت أنا أساعدها بثلاثين في المائة أيضاً . . ولقد فكرت وأنا أقول ما قلت : (يا إلهي ، أأساعدها رغم أني فقير ؟) . . ثم رأيت فؤاد وحده وقد حمل بشدة على المسؤولين في الدولة الذين يصادرون بالات الملابس المستعملة القادمة من الغرب ، وقال : يصادرونها وأنا بحاجة إليها لتكون لي سترة ؟ وبدا على فؤاد الغضب . . ثم وجدتني في مكان عال قرب صهريج يغلي ، وقد حدث شق فيه ويكاد أن ينفجر فتوافد الناس للنجدة وصعدوا إلى حيث الصهريج ، وتقدم واحد منهم فجعل يلحم الصدع بالرصاص ليمنع البخار من الوصول إلى درجة الأنفجار . وقلت لنفسي لو أن الناس تعلموا جميعاً لكونوا جيشاً واحداً كهذا الجيش .

وتعبير الرؤ ياهو أن الفؤاد الروح ، إذ الفؤاد تسمية للقلب الذي شارف

جهة الروح ، وأنا القلب في تقلبه أي الفكر الإنساني ، والفتاة النورية الفقيرة العالم الظاهري الإمكاني الفقير ، وقد قلنا إن أصله النُور ، فالفتاة النور الظاهر . وعالم الظواهر هذا هو الذي يحتاج إلى مساعدة ، وفؤاد الروح ساعد بنصيب فلا غنى للعالم عن المدد الرحماني الروحاني وتأييده في كل ساعة . ولقد أبديت أنا استعدادي للمشاركة في المساعدة رغم أنني فقير، فالفكر ههنا فقير في ذاته غني بالنور، ولكن له دوراً في بناء العلم واستمراره وتطوره . وغضب فؤاد على المسؤولين الذين صادروا الملابس المستعملة القادمة من الغرب فهو غضب إلهي على المتشددين من علماء الرسوم الذين فصلوا الله عن العالم وأصروا على التنزيه حتى درجة التعطيل مع أن الله بحاجة إلى صفات عالم الإمكان ، وهي الصفات التي كانت إلهية فصارت بشرية . . والإشارة إلى صدور هذه الملابس المستعملة عن الغرب اشارة إلى دور الغرب في تطوير الصفات ، فالغرب حضارة مادية ، وهو هنا العالم المادي ، وأعلن الروح أنه بحاجة إلى ما يُستر به فهو من غير ظواهره غير مستور ، أي غير محجوب ، أي غير ظاهر ؛ والله من غير ظهور بطون ، والبطن من غير ظهور عماء كما وصف النبي حال الرب قبل أن يخلق الخلق لما سئل : أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق ؟ فأجاب : كان في عماء مافوقه هواء ولا تحته هواء .

أما حادث الصهريج الذي كان يغلي وبه صدع وتوافد الناس لإصلاحه فهذا يدل على أن هذا الكون ما كان ليكون على ما هو كائن عليه لولا اشتراك الكثرة في هذا الدور . فالصدع لُحم بالرصاص ، والرصاص معدن ، والمعدن كهارب وكهيربات ، ولقد استخدمت الكثرة خواص الرصاص في رأب الصدع لمنع انفجار البخار . . ولقد حقق هذا الإصلاح واحد من الكثرة ورمز إلى هذا بالجيش ، والجيش واحد رغم أنه كثرة ، فأنت ترى الواحد بدا فقيراً في البداية فأحتاج إلى مدد من الماهية الأحدية حتى إذا صلح أعان على إصلاح حال الفكر الفقير في ذاته ، والفكر كثير وهو أبعاض ، والأبعاض أسماء خرجت من طور التكوين إلى طور التحقق والتفصيل فأخرجت ما عندها . . وعن طريق تضاد الأسماء والنتائج المتكونة من ألف وب ، ثم باء وجيم إلى ألف وجيم كقولهم أ = ب ، ب = جـ إذن أ = جـ ، واستمرار هذا التوالد من التجارب الفكرية ،

ومعايشتها الواقع ، وعالم العناصر ، صلح الصهريج الذي داخله ماء وبخار وخارجه قشرة . ولقد عرّف الغزالي الروح الحيواني بأنه بخار لطيف كائن في التجويف الأعلى من القلب ، وفي هذا إشارة لطيفة ، فظاهر الروح الحيواني جسم آلي كلي ، وباطنة بخار لطيف ، ومن المادتين كونت الكثرة ، ثم تمثلت الكثرة في واحد قدم معلومات أفادت في حفظ الصهريج الذي ظاهره قشرة وباطنه بخار ، والإشارة إلى العالم الإلهي الظاهر والباطن .

قلت ضاغطاً بسبابتي صدغي شاعراً أن رأسي سينفنجر :

ـ سيدي أرجوك ، أنت تارة تتحدث عن وجود كثرة وطوراً تقول الكثرة هي واحد أو هي الواحد ، ثم تقول أن الفكر انكشف له أفق آخر هو فكر الفكر فطار الفكر ، ثم تقول إن الفكر موجود وله دور . . وتشبيهك الناس بالأشباح يعني أنهم أشباح بالفعل أي لا وجود حقيقي لهم ، وكلما أردت أن أتبين موطىء قدمي في هذا العالم الذي تصفه زلزلْت الأرض من تحت قدمي .

وفجأة رفعت صوتي متسائلاً بحيرة :

أرجوك ياسيدي هل لي قدم في هذا الوجود أم أنني لا قَدَم لي بالمرة ؟

سبق أن وصفت كيف يضحك الشيخ . لكنه هي هذه المرة كان ضحكه مغايراً نوعاً ما . لقد شرع يضحك حتى انطوى كوسادة ، ثم رفع رأسه وكانت الدموع تملأ عينيه من الضحك . صار وجهه كله صورة للضحك إن صح القول . ولقد استسلم لضحكه وهو ينظرني بشيء من اللوم حتى إذا سكت عنه الضحك جعل يهز رأسه شمالاً ويمنة قائلاً ؛

ـ لو رأيت وجهك وأنت تسألني . . لو رأيت ما رأيت . يا إلهي ، وجهك ، عيناك ، الضراعة في عينيك . إذن أنت تسأل عما إذا كان لك قدم في هذا الوجود . . آه ، العبارة ، العبارة والإشارة . كلما اتسعت الإشارة ضاقت العبارة ، وماذا تفعل العبارة في هذه المغارة ؟ تقصر العبارة عن وصف ما لا تطاله الإشارة. الحق معك، والله الحق معك. أحاول، أحاول جهدي أن أعبر عما كشف لي ومع هذا فلساني عاجز ولكم عجز كثيرون قبلي . كلهم تحدث عن

ضيق أفق العبارة وعن عجز المحدود عن التعبير عن اللامحدود كلهم نبهوا على خطورة تفسير كلام ابن عربي والسهروردي وابن سبعين وابن الفارض تفسيراً ظاهرياً . كلهم قال إن للعارفين إشارات وتشابيه وعلامات هي من قبل الأصحاب الخواص مفهومة وهي في نظر الأغراب ملغومة .

وزرع من ثم في عيني عينيه النفاذتين وضرب إلى صدري بيده مستطرداً :

ـ أنت يا بني الفكر ماشياً على قدمين . والفكر الفردي إشعاع الفكر الكلي أو العقل الكلي الذي هو صورة الرحمن ، فقير من دون مدد الرحمن ، ولا قيام لك بك بل به ، انفصلت عنه في اللازمان واللامكان ليُفك عن طريقك مضمون الأسماء ، فأنت الطلعة الإلهية والصورة الرحمانية والآية الشعشعانية . منه إليه ، كنت فيه من الأزل ، وأنت باق إلى الأبد . أنت قنطرة بين الوجود واللاوجود إذ أنت الصلة بين المعقول والمحسوس . . ما ينتهي إليه المحسوس يخلق على يديك خلقاً آخر وبه لا بك . يستوي عندك الطين واليقين . فمن جهة لك علوق بعالم العناصر لأن جبلتك من هذا العالم ، ومن جهة أخرى لك علوق بعالم الوجوب لأن إشعاعك أصلاً منه و إمدادك . سبحانه خلق آدم وعلمه الأسماء وحمله الأمانة طوعاً أو كرهاً ، فهو الختم والخاتم وفيه تجلت صور الأنبياء والأولياء وخواص الخواص والخواص وأهل اليمين وأهل الشمال . لولاك ما كان للكون أن يكون ، فمن أجلك خُلِقَتْ وما فوقها وما تحتها ومُهِدتْ لك السبل ، وأمر الله المخلوقات أن تسجد لك وتحملك وتعينك وتطعمك وتسقيكْ . لو تدري يا بني من أنت ، خلق على الله عزيز ، وعليه هين ، يوم خلقك لم تكن شيئاً وكنت كل شيء ، إذ بك حُدت الحدود ، وفُضت العقود وأخرجت المواثيق والعهود ، فسبحان من خلقك ، وعلى غير مثال أبدعك ، وإلى اليسرى يسرك وبالعسرى كسّرك ، فأخرج ما فيك من خزائن الملك والملكوت . تسألني من أنت وأنت كل شيء ولا شيء ، فأنت كما قال سلطان العارفين العدم الظاهر .

خلال ما كان منطلقاً في إلقاء هذه القصيدة النثرية التي نفذت إلى قلبي ،

إلى دمي ، إلى عظامي ، وخلال ما كنت أتأرجح بأرجوحة من عبير تهدهدني الآمال والأحلام ، وأنا أراني قد ارتفعت حتى بلغت السماء السابعة . . خلال ما كنت سكران من غير شراب مُدوخاً مما قال ، إذ بكلماته الأخيرة الأخيرة تردني إلى عالم الواقع كأنني طير سقطت من حالق برصاص صياد . ماذا قال عني ؟ أنا كل شيء ولا شيء ؟ أنا . . أنا العدم الظاهر ؟ !

نظرت إليه نظرة عتاب ، نظرة عكست خيبة أملي ، فهل هذه هي نهاية الرحلة والمعراج ؟شبح ، وعدم ؟!

سألني مضيقاً عينيه : ما بك ؟

أطرقت برأسي وأجبت : لا شيء .

وضع يده على كتفي وضغط لحمي قائلاً بصوت مؤثر :

يا بني ، من نحن أمام الواحد القهار ، بهر نوره البصائر والأبصار ، سبحانه هو المليك العزيز المقتدر ، وما نحن إلا ظهور أسمائه . . ومع هذا فلابن آدم المحل الرفيع والمكانة السامية ، إذ هو مستودع العلم والنافذة التي كان الله بها سميعاً بصيراً . لولا الإنسان يا بني لظل كل شيء في طي العدم ، ولا أحقر من العدم . . وعن طريق قلب ابن آدم فضت السموات السبع والأرضين السبع وتنزّل الأمر الإلهي بينهن . عظيمة هي الأمانة التي حملها الإنسان في حين عجزت السموات والأرض والجبال عن حملها . لا أحقر منا إذا ما قسنا أنفسنا بذات الله ولا أعظم منا إذا ما قسنا بقية المخلوقات بنا . اتق الله الذي كان ولا شيء معه وهو الآن ولا شيء معه .

obeikandl.com